

الأعمال الكريمة

لفضيلة الشيخ

عظيمة الله أبي عبد الرحمن

حكايا ابن أبي عمير

رحمه الله

جمعه ورببه وحققه

أبو عبد الرحمن الشافعي

غفر الله له

الطبعة الثانية من نسخة ووقف

لتحميل الكتاب وتصفحه في الشبكة

صور
الباركود



<https://mktabaj.net/atyah>

لتحميل مجموع الأعمال وتصفحه
من خلال برنامج "التور" حصراً

صور
الباركود



<http://256c73vcfyg3wysyvzauirdxlop7m ovh4jeq2kmlqgpryw ppkgaqbbqd.onion>

الإمام الشهيد

للشيخ الإمام الشهيد المجاهد

عبد الرحمن بن محمد بن عبد الوهاب

عبد الرحمن بن محمد بن عبد الوهاب

كانت الطبعة الأولى في عام: ١٤٣٦ هـ - ٢٠١٥ م، وتأتي هذه

الطبعة الثانية -مزيدة ومنقحة بإضافات كثيرة -

١٤٤٦ هـ - ٢٠٢٤ م

الرقع الإلكتروني الخاص بمجموع الأعمال الكاملة للشيخ عطية الله:

<https://mktabaj.net/atyah>

وعلى شبكة التور "السفرة":

<http://256c73vcfvq3wysyvzauirdxlop7movh4ieq2kmlaqaprywppkaaqbbqd.onion/>

حقوق الطبع محفوظة لكل مسلم؛ بشرط الدعاء:

للمؤلف الشيخ المجاهد: عطية الله الليبي ﷺ وتقبله وأسكنه الفردوس وأخلف الأمة عنه خيرا

ولأبطال الأمة: المجاهدين الميامين نصرهم الله وسدد رميهم وثبتهم ومكنهم، وأذل عدوهم

وللفقير لربه معدّ المشروع: الزبير الغزي هداه الله وعلمه وغفر له وتقبل منه، وحثم له بالخير والشهادة

وللمسلمين عامة، وأهل الشام وفلسطين خاصة أزال الله أعداءهم، ومكن لشعره حكما بينهم

الطبع والتجليد:

Step Ajans Matbaa Ltd. Şti

Göztepe Mah. Bosna Cad. No: 11 Bağcılar / İstanbul Tel: 0212 46808426

Sertifika No: 45528
الإمام الكاملية

عنوان: للشيخ الإمام الشهيد المجاهد - العمرانية

Yamanevler M Dükkan: 1

عطية الله الليبي

bilgi@kureselkitap.com

www.kureselkitap.com

المكتبة العالمية

الإمام الكاظم عليه السلام

للشيخ الإمام الشهيد المجاهد

عطاء الله اللبيني

جمال الدين أحمد الشاذلي المصري

الذي استشهد - تقبله الله - بغارة أمريكية صليبية على منزله في خراسان في شهر رمضان ١٤٣٢هـ، أغسطس ٢٠١١م

تقديم:

الشيخ: أبي قتادة الفلسطيني الشيخ: سيف العدل المصري
الشيخ: أبي عياض التونسي الشيخ: أبي الحسن رشيد البلدي
الشيخ: أبي محمد الفقيه الليبي الشيخ: د. هانئ السباعي
الشيخ: عمر بن مسعود الحدوشي الشيخ: د. سامي العريدي

الطبعة الثانية - مزيخة ومنقحة -

جمعه ورتبه وحققه وخرجه أحاديثه:

أبو عبد الرحمن الشاذلي الزبيدي الغزي

- غفر الله له ودفن له بالسهادة في سبيله على نرك بيت المقدس -



دار الكتاب العالمي

بعض الحالات فهو قليل ونادر، والسبب في ذلك واضح جداً؛ لأن الأشراف والسادة والرؤساء والملوك ورؤساء الأقوام والمترفون الذين مثلهم فرعون وقارون وهامان، هؤلاء عندهم عوائق كثيرة تعوقهم عن الاستسلام لله ﷻ والخضوع والذلة لأمر الله ﷻ، ومتابعة الرسل، عندهم أموالهم وعندهم جاههم، وعندهم سلطانهم، ويخافون أن يفقدوا هذه المكاسب التي بأيديهم، بخلاف الفقير المسكين الضعيف الذي ليس عنده ما يخسره؛ فإذا جاءه الحق وعرض عليه هكذا بسيطاً فإنه يتبعه؛ لأنه ليس عنده عوائق.

أما المترفون والسادات والكبراء فإنهم يعرفون الحق ولكن لا يتبعونه؛ خوفاً على مكاسبهم الاجتماعية والاقتصادية وغيرها، هذا طبيعي، وهذا ممتد ومستمر إلى يوم القيامة.. هؤلاء الضعفاء هم أتباع الرسل؛ لأن الله ﷻ منّ عليهم وجعلهم أكثر تهيئاً وأكثر استعداداً وقابلية لأن يتبعوا رسل الله ﷻ ورسالات الله ﷻ ويعملوا بها، هذه منة من الله ﷻ عليهم. فليس عيباً أن الدعوة يتبعها الضعفاء.

أسؤال عن كتاب «المصطلحات الأربعة» لأبي الأعلى المودودي ﷻ [يقصد بالمصطلحات الأربعة، الألفاظ الأربعة: الرب، والدين، والعبادة أو العبودية، والطاغوت، إن لم أكن مخطئاً.. وهو تقريباً في ستين صفحة^(١)].

❖ الابتلاء والاختبار والفتنة والامتحان

نحن تكلمنا عن الدين، قلنا الدين هو مجموعة تكاليف، هذه التكاليف التي كلفنا الله ﷻ بها فيها نوع مشقة، والتكليف هو طلب ما فيه مشقة أو إلزام ما فيه مشقة، وقلنا أن المشقات منها كبير ومنها صغير، فالله ﷻ إذن قد ابتلانا بهذا الدين، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ﴾ [الإنسان: ٢] خلقناه لنبتيه، وجملة (نَبْتَلِيهِ) في موضع الحال، يعني خلقناه مبتلين له، أو مبتلينه، مبتلين

(١) ألف الشيخ العلامة أبو الأعلى المودودي هذه الرسالة في سنة ١٣٦٠هـ - ١٩٤١ م، ونشر فصولها تباعاً في مجلته الشهرية «ترجمان القرآن» ثم جمعها ونشرها في رسالة سماها «المصطلحات الأربعة في القرآن»، والمصطلحات هي: الإله والرب والدين والعبادة. قال الشيخ في مطلعها (ص ٣): «هذه الكلمات الأربع أساس المصطلح القرآني وقوامه، والقطب الذي تدور حوله دعوة القرآن؛ فجماع ما يدعو إليه القرآن الكريم هو أن الله تعالى هو الإله الواحد الأحد والرب الفرد الصمد، لا إله إلا هو، ولا رب سواه، ولا يشاركه في ألوهيته ولا في ربوبيته أحد.. فيجب على الإنسان أن يرضى به إلهاً وأن يتخذه دون سواه رباً، ويكفر بالوهية غيره ويجحد ربوبية من سواه، وأن يعبد وحده ولا يعبد أحداً غيره ويخلص دينه لله تعالى ويرفض كل دين غير دينه سبحانه».

إياه؛ فالله ﷻ خلقه وهو يريد أن يبتليه، وأن يختبره، وأن يمتحنه، بماذا اختبره؟ اختبره بالتكاليف؛ لينظر الله ﷻ وليستخرج في عالم الشهادة عبوديته، أو تمرده على الله ورفضه لعبادة الله ﷻ.. هذا هو الابتلاء والاختبار والامتحان.

هذه الامتحانات والابتلاءات هي التكاليف؛ منها الشاق ومنها الخفيف.. في حال العافية وحال السلامة وحال الرخاء وحال الخلو من المحن؛ يدخل كثير من الناس في الدين ويبدلون طاعة الله ﷻ، لكن إنما يتميز العابدون لله ﷻ حقاً في وقت الشدائد ووقت الامتحان والابتلاء، إذا وُضِعوا على هذه المحكات التي يتميز بها الخلق، كما قال الله ﷻ: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩]؛ فيه إشارة إلى أن الله ﷻ - وهو كذلك - يعلم الغيب، يعلم حالهم ولا يحتاج أن يمتحنهم لو كان الأمر متعلقاً بعلم الله، لكن الله ﷻ أراد أن يظهر هذا إلى عالم الشهادة، الله ﷻ لا يعذب أحداً إلا على ما ظهر منه، وإنما يعاقب العباد أو يثيبهم على الشيء الذي ظهر وتحقق فيهم في عالم الشهادة، أما عالم الغيب يعلمه الله ﷻ وقد استأثر به، لكن عالم الشهادة يظهره الله أمام الخلائق.

فالمقصود أن الله ﷻ خلق الإنسان ليبتيه ويكلفه، وجعل محل الابتلاء هذه الدار الدنيا التي هي دار ابتلاء ودار امتحان ودار اختبار، تبدأ فيها مرحلة امتحان الإنسان من مرحلة تكليفه بأن يبلغ العقل، وهذا هو البلوغ الذي أنيط به التكليف، وهو مرحلة تهيؤ العقل بشكل مناسب لأن تناط به التكاليف؛ فيخاطب بالأحكام من لحظة بلوغه إلى أن يموت الإنسان عاقلاً فنتهي فترة الاختبار، وتسحب منه ورقة الامتحان، ويُنظر بعد ذلك إلى صحيفته وفي إجاباته: هل أحسن الإجابة أم لم يحسن؟! هذه فترة الدنيا؛ فترة الامتحان وفترة الاختبار.

الامتحانات أحياناً تكون شاقة وصعبة، ومن ذلك: امتحان الجهاد وامتحان الهجرة، وامتحان أن الله ﷻ يسلط علينا عدواً ويسلط علينا طواغيتاً؛ لينظر الله ﷻ ماذا نعمل، فلا يُعترض على الله ﷻ أن كيف اختبرتنا بهذا، نحن نريد أن نعيش في سلام.. الخ، فنحن عبيد الله لا يُسأل الله عما يفعل ونحن العبيد نُسأل، ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣] الله ﷻ هو خالق الخلق، وهو مدبرهم، وهو ربهم وهو مالِكهم، يفعل ما يشاء فيهم، لو عذب أهل سماواته وأرضه لم يكن ظالماً لهم ولا يسأله أحد، فالله ﷻ أحياناً يختبر العباد بشيء مهم.

من الأمثلة التي ضربتها الشريعة وجاء بها الرسل؛ وهو ليس مثلاً ولكنه أشبه بالمثال؛ لأنه لم يأت بعد، لكن هو واقع وسيأتي، وهو: «الدجال»؛ فأشهر مثال للفتنة الكبيرة والامتحان الكبير هو اختبار

آدم إلى آخر عمر الدنيا.. أكبر مثال للدجاجلة والفتن والابتلاءات الكبيرة؛ لأن هذا الرجل يمر على القرية فيأمرهم أن يؤمنوا به ويتبعوه، فيرفضون ويكفرون به؛ فيأمر الأرض أن تجذب ويأمر السماء أن تمسك يعني ما تنزل القطر، ويأمر القرية فتتبعه كنوزها لا يبقى شيء لهم ثمين إلا ويتبعه ويمشي كيعاسيب النحل، ويبقوا هم وراءه في حال سيئ جداً وكرب عظيم لكنهم كفروا به، وتمسكوا بعبودية الله ﷻ وحده لا شريك له.

ويمر على القرية الأخرى فيدعوهم إلى الإيمان به واتباعه، فيتبعونه فيأمر السماء فتمطر، ويأمر الأرض فتخرج نباتها على أزهى صورها وأحسنها، كل هذا ابتلاء من الله ﷻ؛ لأن الله ﷻ أقدره هذه القدرات، ولما يقول للسماء أمسكي فتمسك، ولما يقول لها أمطري تمطر، جعل هذه الأشياء منقاداً له؛ فتنة للعباد.

وهو شرير مجرم مدعٍ للألوهية يدعو الناس إلى أن يعبدوه، فيصبح الذين كفروا به في ضيق شديد، والذين يؤمنون به ويتبعونه يكونوا في بحوحة، تغدوا عليهم سارحتهم وتروح، نوقهم وبقرهم ومَعزُهم تصير ضروعها كبيرة والحليب كثير.. فتنة للناس كبيرة؛ لكن أمره بسيط، ونهايته قريبة؛ فهو يبقى أربعين يوماً، يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة، ويوم كبعض أيامكم.

تنتهي فتنتهم، وينزل عيسى بن مريم فيقتله ﷺ^(١)؛ وريح من ربح، وخسر من خسر، هذه مدة بسيطة تقيسها أنت سنة وشهر وأسبوع وزد عليها سبعة وثلاثين يوماً، في النهاية تكون سنة وشهرين، شيء بسيط، فتنة مرت علينا، نحن عندنا الأمريكان هنا لهم في أفغانستان سبع سنين! يعني سنة ونيف فيها هذا كله!! مدة الدجال وفتنته، ولكن انظر كيف ينقسم الخلق وهو يطوف الأرض كلها لا يبقى موضع إلا ويدخله، إلا مكة والمدينة حفظهم الله ﷻ وحرزهم منه ومنعه قدرًا وكونًا منه، لا يستطيع أن يدخلهما أبدًا، يأتي ليدخلهم فتصدده الملائكة فلا يستطيع.

فهذه فتنة عظيمة أخبرنا بها النبي ﷺ وأخبر بها الأنبياء السابقين أمهم كذلك؛ تحذيرًا وتنبهًا، وأيضًا من باب ضرب المثال لجنس الدجاجلة، وجنس أسباب الابتلاءات والفتن والامتحانات الكبيرة، وإلا نحن لو نظرنا إلى الواقع الذي نعيشه الآن ولو نظرنا أيضًا إلى التاريخ لوجدنا دجاجلة كثر خرجوا، أمريكا الآن هذه مثال للدجال، هذه مثال صغير على كبرها، أمريكا هذه يقولون أنها أكبر قوة في التاريخ؛ هي في النهاية بجانب الدجال لا تساوي شيئًا، الدجال قدراته خارقة.

(١) انظر في قصة الدجال: صحيح البخاري (١٥٥٥، ١٨٨٢، ٣٤٣٩، ٣٣٨٣، ٣٤٥٠، ٧١٢٢ حتى ٧١٣٤؛ باب ذكر الدجال).

تدخل أمريكا للعراق فينقسم الناس، ناس يتبعوها ويكونوا معها، لماذا يتبعوها؟ رضا بالحياة الدنيا، واستعجالاً لطيباتها، وطلباً واختياراً ورضاءً وقناعة بحطامها، ما عندها من الدولار وما عندها من الفلوس وما عندها من خدمة وما عندها من ضرع وزرع، حتى أن كثيراً منهم ربما غير مقتنعين بأمريكا، وبعضهم عنده قناعات معينة من خلال الثقافة الأمريكية؛ لكن كلها راجعة في النهاية إلى استحباب الحياة الدنيا على الآخرة، والرضا بالحياة الدنيا واختيارها وتفضيلها على الآخرة.. فتجدهم يتبعون أمريكا، وطوائف قليلة جداً -دائماً أهل الحق هم القلة- هم الذين يكفرون بهذا الدجال ويحاربونه؛ فهذا هو الحاصل في العراق وفي أفغانستان وفي أي مكان حيثما نزلت الدجاجة، وقبلهم الاستعمار الإنجليزي والفرنسي والإيطالي وغيرهم، وقبلهم التتار -مثلاً- لما هجموا على أمة الإسلام قديماً؛ على المشرق الإسلامي، واكتسحوا دولة الخلافة العباسية وأسقطوا الخلافة سنة ستمئة وستة وخمسين؛ فكانت فتنة عظيمة جداً جداً^(١).

تصوروا أن جماعات كبيرة جداً من العلماء في ذلك الوقت الذي كان فيه فطاحلة من العلماء.. دخلوا مع التتار! وقرؤوا «البداية والنهاية»، و«الكامل» لابن الأثير؛ في هذه السنين بالذات^(٢)، وقد استمروا في فتنتهم مدة طويلة، وهم هجموا عدة هجمات قبل سقوط الخلافة ثم وقفوا مدة ثم هجموا لما جاء «هولاكو» الذي أسقط الخلافة، ثم بعد إسقاطهم خلافة بغداد مشوا إلى الشام وسيطروا على معظمها، وكادوا يأخذون بقيتها، واتجهوا إلى مصر؛ فسخر الله لهم «قطز» و«بيبرس» وقادة المسلمين السلاطين والمماليك وغيرهم ومن معهم من الفرسان والأبطال والعلماء والأئمة الذين وقفوا معهم، وكان شيخ الإسلام ابن تيمية من أبرز العلماء الذين وقفوا مع هؤلاء الطائفة المجاهدة وقفة عظيمة؛ فنصر الله ﷻ المسلمين عليهم، وإلا كانت فتنتهم فتنة كبيرة جداً جداً.

ودخل معهم خاصة بعد سقوط الخلافة في هذه المرحلة التي سقطت فيها الخلافة وما بعدها، دخل معهم جماعات كثيرة جداً من العلماء، دخلوا في حكمهم وفي وظائفهم وصاروا يفتون لهم ويعملون معهم ويساعدونهم؛ فهذا شيء فظيع جداً حتى من العلماء، أما العامة فحدث ولا حرج، وهكذا ينقسم الناس في وقت مجيء الدجال.

(١) انظر في فتنة التتار رسالة: «المغول (التتار) بين الانتشار والانكسار»، لعلي محمد الصلابي، ويقع في قرابة ٤٣٠ صفحة.

(٢) جاء في عدة مواضع في «البداية والنهاية» ما يؤيد كلام الشيخ؛ ففي (١٧ / ٣٩٧) في استيلاء التتار على حلب قال ابن كثير:

«أخذوها سريعاً من غير ممانعة ولا مدافعة، بل تلقاهم كبارها بالرحب والسعة».

هؤلاء الذين أسلموا وصبروا، يعني آمنوا بالله ﷻ وكفروا بهذا الطاغوت وبهذا الدجال، ضاعت عليهم دنياهم، وخسروا كثيراً من المتع، وضحوا بدنياهم.. لكن هذه التضحية مرادة لله ﷻ ومحبوته له ﷻ، أرادها الله وأحبها منهم، وأحب أن يبذلوا دنياهم في سبيله ﷻ وأن يظلوا بتوحيد الله وعبوديته وحده لا شريك له، والإيمان به ﷻ واتباع رسله والتحاكم إلى شريعته وترك ما سواها.

هذا الامتحان لا شك أنه امتحان كبير وقاسٍ لدرجة كبيرة، ولكن هذه هي الامتحانات، وعلى المسلم المؤمن أن يكون مستعداً دائماً للابتلاء والامتحان وشعاره دائماً: سمعنا وأطعنا، ولا يقول: لماذا وكيف ولماذا أنا فقط؟.. ولا يعترض على اختيار الله ﷻ وحكمته، وعلى قضاء الله ﷻ وحكمه، بل يخضع ويذل وينقاد، ويكون في صف الله ﷻ، المراد من هذه الامتحانات والاختبارات أن يظهر من يكون مع الله ومن الذي يمشي مع أعداء الله..

وكما قلنا أن الأمريكان الآن -مثلاً- هم عبارة عن دجال صغير.

والخلاصة: أن الحياة الدنيا هذه كلها دار فتنه وابتلاء وامتحان واختبار، خلقنا الله ﷻ فيها للامتحان والاختبار، وهذه الاختبارات بعضها يكون شديداً وقاسٍ جداً جداً؛ فعلينا أن نستعد لهذا، فنحن ما خلقنا إلا له، خلقنا لكي يبتلينا الله ويمتحننا ويختبرنا، ونسأل الله ﷻ العافية دائماً، شرعت لنا الشريعة وأمرنا النبي ﷺ واستحب لنا وبين لنا ومدح هذا الأمر وهو أن نسأل الله دائماً العافية، ونطلب العافية، ولا نجرب الله، ولا نجرب أنفسنا، لا تقل: أنا قوي وما يضرني شيء.. لا، ابتعد عن المصائب وابتعد عن الابتلاءات والفتنة، العافية أن يعافيك الله ﷻ وأن لا يضعك على المحك، وأن لا يختبرك ولا يمتحنك ولا يبتليك، بل يبعد عنك أسباب الابتلاء والمحن، وإن كان كل إنسان لا بد أن يصيبه البلاء؛ فلا بد أن يبتلى الإنسان، لكن أن يعافيه الله ﷻ بمعنى يخفف عليه ويبعد عنه الابتلاءات الكبيرة والشور والامتحانات والفتن؛ فهذا مطلوب، وسؤال الله العافية من الأدعية المهمة، وجاء في بعض الأحاديث: (أنه ليس شيء أحب أن يسأله من العافية) ببعض الألفاظ: (اليقين والعافية)^(١)؛ فدائماً نسأل الله ﷻ اليقين والعافية؛ أن يرزقنا الله اليقين وأن يعافينا.

لكن إذا وقع الابتلاء ووقعت الشدة؛ فعلينا أن نصبر ونستعين بالله ﷻ وحينئذ ينزل الصبر على الذي

(١) في سنن الترمذي (٣٥٥٨) أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه حدث عن النبي ﷺ أنه قال: (اسألوا الله العفو والعافية، فإنَّ أحدًا لم يُعطَ بعدُ

اليقين خيراً من العافية) وقال الألباني: حسن صحيح.

يستعين بالله، وفي الحديث: (ومن يتصبر يصبره الله)^(١) يتصبر ويستعين بالله فيصبره الله ﷻ ويعينه ويقويه؛ لأن الإنسان ضعيف، لا يقدر على شيء إلا أن يقدره الله، وإلا أن يعينه ويصبره، وإلا أن يهديه الله، وإلا أن يوفقه الله، وينصره ﷻ.. فهذا ما يتعلق بالامتحانات والابتلاءات.

والفتنة تأتي بمعنى: الابتلاء والاختبار والامتحان؛ فتكون هذه بمعنى هذه.

الفتن - وواحدتها الفتنة - جرى أكثر استعمالها في لسان الشرع والسنة على معنى الابتلاءات والاختبارات والامتحانات التي تكون في جانب الشر، والفتنة في لسان الشرع - في القرآن خاصة - ذكر العلماء أنها وقعت وجاءت على معانٍ متعددة^(٢):

❖ جاءت بمعنى الصرف عن الدين.

❖ وجاءت بمعنى الاختبار والامتحان المجرد: أي مطلق الاختبار والامتحان.

❖ وجاءت بمعنى العذاب: ﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ﴾ [الذاريات: ١٤]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتِنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [البروج: ١٠] أي عذبوهم.

❖ الاختبار والامتحان: جاءت في آيات؛ نحو: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ﴾ [ص: ٣٤]، ﴿لَتَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [طه: ١٣١] ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ [الفرقان: ٢٠] اختباراً وامتحاناً، وفي القرآن تكررت كثيراً كلمة ﴿فِتْنَةً﴾.

❖ وجاءت بمعنى الشرك والكفر: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩]، وتحتمل أيضاً في هذه الآية معنى الصرف عن الدين والصد عنه؛ لأنهم قالوا أن أصل الفتن هو الصرف، ومنه فتنة الذهب: تنقيته وتصفيته من الشوائب عندما يحرق بالنار ويُغلى ويذاب ويصفي من الشوائب ثم تُعاد صياغته.

آية ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ تحتمل المعنيين، وهذا كله مذكور في التفسير؛ فقد ذكر السلف المعنيين؛ ولذلك فإن بعض المفسرين جمع بينهما، أي حتى لا تكون كفراً وشركاً، أي: شركٌ ظاهرٌ غالب تقع منه الفتنة للمؤمنين بالصرف عن دينهم؛ لأنه ليس المقصود القضاء على الكفار بالكامل؛ بدليل أن الكفار يبقون تحتنا أهل ذمة، ولكن المقصود: أن الكفر والشرك إذا كان ظاهراً له كلمة، فلا بد أن يُضرب حتى يكون ذليلاً تحتنا.. فالكفار إذا غلبوا وكان لهم تمكن وسلطان فإنهم يفسدون

(١) صحيح البخاري (١٤٦٩).

(٢) ذكر الشنقيطي في: العذب النمير (٥/ ٢١٦)، أضواء البيان (٦/ ١١٨) أربعة معانٍ للفتنة: الحرق في النار، الاختبار - وهذا أكثرها استعمالاً -، نتيجة الاختبار بشرط كونها سيئة خاصة، الحجّة.

فسادًا عظيمًا؛ يفسدون الدين والدنيا، وهذا هو الواقع الآن.

وأحب هاهنا أن أنبه على معانٍ في الفتنة:

أولاً: الإنسان عليه أن يفر من الفتن؛ لأن الشريعة جاءت عندنا بالأمر بالفرار من الفتن: باب من الإيمان الفرار بالدين من الفتن، (يوشك أن يكون خير مال المؤمن غنم يرعى بها شعف الجبال ومواقع القطر؛ يفر بدينه من الفتن)^(١).

الفرار بالدين من الفتن مطلوبٌ في الشريعة، إذا وقعت الفتن وحلت الفتن حاول أن تهرب، ولا تواجه الفتنة، لا تدخل فيها ولا تقربها، وابتعد عن الفتنة.

[أحد الحضور: يا شيخ، هل نحن نعتبر فارين من الفتنة؟]

الشيخ: إن شاء الله، لا شك أن الإنسان إذا هاجر وترك هذه البلدان وغيرها وانضم إلى طائفة مجاهدة مهاجرة مالكة لنفسها مقيمة لحكم الله ﷻ في نفسها وفيما حولها وفي البقعة التي هي فيها؛ فهذا قمة الفرار من الفتنة.

الفتن كثيرة لا شك؛ فيكثر الإنسان من الدعاء أن يقيه الله الفتن؛ نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن، الظاهر والباطن، الخفي والجلي، معنى الفرار والهرب من الفتن أن لا نواجهها ولا ندخل فيها ولا نقاربها ولا نكون عندها، ونسأل الله العافية ونطلبها منه، هذا مما يعين على الفرار من الفتنة، الدعاء أن يعافيك الله منها، اطلب العافية، اطلبها دومًا وادعُ الله بها، اطلبها عمليًا.

كنا مرة في موريتانيا ندرس هناك، وكنا في جنوب موريتانيا بعيدين جدًا في قرية صغيرة، فوجدنا مركز شرطة، غرفة طين فيها نقطة، وكنا قريبين منهم؛ فقال لي أحد الإخوة الذين كانوا معي: امشِ نسألهم -عن شيء معين-، فقلت له: هؤلاء شرطة لا تقرب منهم.

كنا عايشين حياة عادية هناك؛ معنا جوازات ولا أحد يبحث عنا، ولكن مهما كان فيجب على الإنسان أن يبتعد عنها، فقال: أنت ليش خايف؟ فمشى هو إليهم فشدّوه! وأخذت منها درس طبعًا.

بعدها؛ الحمد لله طلبوه وأخذوه لمركز المدينة وصاروا يسألون: أنتم من متى هنا ولماذا لم تسجلوا ولماذا لم تأتوا من البداية للشرطة؟!.. فسايرناهم وهربنا بطريقة سلمية.

لكن استفدت منها أن الفتن يجب عليك أن تبتعد عنها، لا تقل: لا يوجد مشكلة، ابتعد عن الشر يبعد عنك، هذا مثال لطلب العافية دائمًا، ولا تجرب نفسك، ما استطعت أن تبتعد ابتعد، ونحن كذلك في

(١) صحيح البخاري (١٩).

حركتنا هنا إذا استطعت حتى في الحالات العادية أن تتعد من الفتن والمشاكل فافعل، اطلب العافية، ويجب الفرار من الفتن التي تفسد دين الإنسان من فتن النساء، والأموال، والمناصب، وفتن الكفرة ومبهماتهم، وزخارف الدنيا.. يفر منها الإنسان، يفر من مفاسد الدنيا الصادة عن سبيل الله؛ يفر بدينه، هذه الأمور حثت عليها الشريعة جدًّا وهذا من الإيمان.

هذه الفتن تقع بأسباب متعددة؛ تكون الفتن في العلم، والفتن في الدين، وفتن في الفكر والمنهج، فتن في فهم الأشياء في التصورات والتصديقات، فتن لها أسباب متعددة، ولهذا قال الله ﷻ كما أمرنا أن نفر من الفتن ونهرب منها ونحاول ألا نقع فيها ولا نواجهها ما استطعنا.. أمرنا كذلك ألا نكون فتنه للناس، أي ألا نكون سببًا لفتنتهم؛ قال الله ﷻ: ﴿فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَحْنًا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [يونس: ٨٥ - ٨٦].

أمرنا الله ﷻ ألا نكون فتنه للناس عمومًا، وللقوم الظالمين على الخصوص، ويعني ذلك أن لا نكون سببًا لفتنتهم، وهذا عام في كل الناس وإن كان هذه الآيات وردت في القوم الظالمين فلها معنى أخص، ولكن المطلوب في مجمل الأدلة من المؤمن أن يفر من أن يكون فتنه للناس عمومًا؛ لأن الله ﷻ لا يحب أن نفتن الناس، ويحب العافية، وأمرنا الله ﷻ أن نسأله العافية؛ حتى القوم الظالمين، وحتى لو كانوا عدوًّا نحاربه.. لا نكون فتنه له.

كيف لا نكون فتنه للناس؟ فسرت هذه عند السلف كمجاهد وغيره بأن معناها: لا تظهرهم علينا فيظنوا أننا لو كنا أولياء الله حقًا لنصرنا الله؛ فيفتنوا، فيقولوا: لو كان هؤلاء أولياء الله لنصرهم الله، فيفتنوا.. هكذا فسرت وفسرت بغير هذا، لكن المقصود المعنى المهم العام أنه فيه تعليم وتلقين من الله ﷻ لنا أن ندعوه ألا يجعلنا سببًا لفتنة الناس؛ ولهذا نحن نحاول دائمًا أن نتعد عن أن نفتن الناس بكلمة، أو بتصرف معين، سواء الناس الذين من أوليائنا وأحبابنا وإخواننا وأهل الإسلام، أو من الخصوم من أهل الإسلام أنفسهم، أو من الأعداء من غير أهل الإسلام، نحاول ألا نفتن الناس، بل نحاول دائمًا أن نسهل على الناس طريق الإتيان للحق، طريق أخذ الحق وقبول الحق واتباع الحق، لا نفتنهم عن دينهم، في خطابنا في كلامنا.

مثلاً: عندما تتكلم مع الناس، عليك أن تراعي عقولهم، كما قال سيدنا عبد الله بن مسعود في مقدمة «صحيح مسلم»: «ما أنت محدث قومًا حديثًا إلا كان لبعضهم فتنه»^(١)، وكما قال سيدنا علي ﷻ في

(١) مقدمة صحيح مسلم (ص ١١).

«صحيح البخاري»: «حدثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يكذب الله ورسوله؟»^(١) فيمكن أحياناً أن تحدث الناس الحديث وبعض الأشياء الشرعية الصحيحة، ولكن الناس لا تستوعبها فيكذبونك، يكذبون ما تقوله، وفي الحقيقة هم يكذبون الله ورسوله؛ فلا تفتن الناس ولا توقعهم في تكذيب الله ورسوله، كيف أنت تعظم الله، المفروض تتجافى وتتجنب أن يكذب الله ورسوله بسببك وقدامك.

أي أنك لا تأتي لقوم تحدثهم حديثاً لا تبلغه عقولهم ولا يستطيعون أن يستوعبوه ولا يعرفونه بمعنى أنهم يجدونه منكرًا، وليس معنى أنهم لا يعرفونه أنه يجب أن تحدث الناس بشيء يعرفونه فقط، وأن لا نعلم الناس شيئاً جديداً! ليس هذا المقصود.. معناها: الشيء الذي يعرفونه عندهم بمعنى أنه ليس بمنكر، من المعروف الذي هو ضد المنكر، ليس من المعروف بمعنى أنه ضد المجهول، انتبه إلى هذا «حدثوا الناس بما يعرفون» يعني بما لا ينكرون؛ هذا هو المقصود.

الفتن تقع في أرض الجهاد وفي العمل السياسي بشكل كثير جداً؛ فعلى القيادات وعلى المتصرفين والأولياء والمسؤولين أن يحذروا من أسباب الفتن، مثلاً: تفضيل بعض الناس بالعطاء دون بعضهم، تقريب بعض الناس بشكل معين في الولاية أو في المجالس دون بعض؛ فيقع فتنة لبعض الناس.

مثلاً: كلمة تقولها أحياناً تصدر منك لا تنتبه لها فتكون فتنة لبعض الناس، وهكذا التصرف -مثلاً- من إنسان مقتدى به أو منظور إليه لا يفهمه الناس أو لا يعرفون وجهه فيكون فتنة لبعضهم.

هذه الأشياء تقع كثيراً ويبتلى بها الولاة والمسؤولون؛ فعليهم أن ينتبهوا لها أشد الانتباه؛ لأنه صار عليه تكليف إضافي غير التكليف العادي، لو كان إنساناً عادياً فيمكن أن تكون حرته أكثر أن يتصرف بطبيعته؛ أي ينام بشكل عادي، ويتكلم بشكل عادي، لكن لما كان منظوراً إليه فيجب أن يضبط نفسه أكثر؛ لأن الناس حساسة للأمرء وحساسة للمسؤولين ينظرون إليهم، ويقيمون من خلالهم -مثلاً- جماعتهم أحياناً؛ فأنت تمثل جماعة، يقيمون أحياناً الدين من ورائك أنت، هذا الدين وهذا الإسلام الذي تدعو إليه يقيمونه من خلالك، يقتدون بك؛ فالناس متشوفة للاقتداء بالمسؤولين وبالكبراء، فصار هناك تكليف جديد على المسؤول أن ينتبه.

المقصود أن عموم الناس عندهم ميل إلى أن يقتدوا بكبرائهم -وهذا في طبيعة البشر كلهم-، يقتدوا بالكبراء والناس المنظور إليهم وليقال: هذا فلان اقتدوا بهم انظروا كيف يعمل وكيف.. الخ.

فإذن يجب على المسؤولين وعلى القيادات وعلى كل من يمثل الدعوة والكبار والعقلاء -بغض

(١) صحيح البخاري (١٢٧).

النظر عن كونه في منصب أو غير منصب -، ممكن يكون شيخاً محترماً أو داعية أو رجل كبير أو رجل قديم في الجهاد وفي الدعوة؛ كلهم عليهم مسؤوليات، هذه مسؤولية ورعاية عليه أن يراها، وأن ينتبه ألا يكون فتنة لبعض الناس، بكلمة أو تصرف.. إلخ؛ فيضبط نفسه وينوي بذلك أن يحافظ على دين الناس من خلال اقتدائهم به، وألا يكون فتنة لهم، ويكون حينئذ انضباطه وتحزره عمل صالح، ليس مقصوده فقط أن يقال عليه أنه ما شاء الله منضبط، هذا لا ينبغي أن ينظر إليه، لكن يغلب الجانب الآخر وينظر إليه، يعني الناس تقتدي به، والناس تحاول أن تبحث عن عيب، بعض المتربصين - مثلاً- أو بعض النفوس الضعيفة أو بعض الخصوم أو بعض من عندهم مشاحنات؛ يحاولون أن يبحثوا له عن شيء أصلاً حتى يغلط فيه فقط، ويا ويلك!

ومن معاني الفتنة كذلك: التفريق بين الناس، ومنها حرب الفتنة؛ ويعني ذلك أن الناس يحصل بينهم حرب في حالة الفتنة، وضابط حرب الفتنة: أنه لا يُعرف وجه الحق فيها مع أي الطرفين هو. والناس يفتن بعضهم بعضاً؛ أي يصرف بعضهم عن بعض، داخله في معنى الصرف؛ فمن معانيها الصرف؛ لأنهم - مثلاً- يقولون: رجل فتان.

النبي ﷺ قال: (أفتان أنت يا معاذ؟) ^(١) أي تفتن الناس عن الدين؛ إذ صلى بهم فأطال وهم ناس بسطاء، أحدهم يعمل طول النهار، ثم يأتي في الليل ليصلي المغرب وينتظر للعشاء؛ فجاء معاذ ﷺ متأخراً وصلى بهم فأطال جداً، فغضب منه النبي ﷺ غضباً شديداً وقال: (أفتان أنت يا معاذ) تفتن الناس عن الدين؛ فهذا مثال نبوي علمنا إياه ﷺ من خلال قصة معاذ هذه، أننا لا نكون فتنة للناس؛ فلا نفتنهم في تصرفاتنا الجهادية، ولا في تصرفاتنا السياسية وغيرها، فننتبه جداً من تنفير الناس من الدين من خلال أخطائنا وأخلاقنا السيئة، بحيث لا نفي بالوعود والعهود، نحلف الحلف الحانث - والعياذ بالله - وغير ذلك.. هذه الأشياء تنفر الناس تنفيراً عظيماً، كما في الآية وهي قوله ﷺ: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا أَلْسُوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل] حذرنا الله ﷻ ونهانا أن نتخذ أيماننا دخلاً بيننا؛ بمعنى أن نحلف الأيمان ولا نفي بها، وأن نحنت فيها تعمدًا، هذا هو اتخاذ الأيمان دخلاً بيننا.

﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ المراد أن قدم الإنسان الذي دخل في الإسلام ولمّا تثبت ولمّا ترسخ قدمه في الدين بعد؛ فتزل بعد ثبوتها، وكذلك من باب أخرى وأولى الكافر الذي لم يدخل بعد في الإسلام،

(١) صحيح البخاري (٦١٠٦)، صحيح مسلم (٤٦٥).

ويُراد منه ويُرجى منه أنه يدخل، وربما يريد أن يدخل؛ فلما يأتي ليدخل يرى أخلاقكم هكذا؛ فينصد عن الدين، يراكم سارقين، متكالبين على الدنيا، مهتمين بالسفاسف، كذب وحلف بالباطل، وتعمد الحنث، والأيمان الغموس، عدم الوفاء بالعهود، عدم الوفاء بالأمانات، خيانات، ما هذا الدين؟ فينصد، ويترك، وتكونون أنتم فتنة له وسبب في انصداده عن الدين: ﴿وَتَذُقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وهذا وعيد شديد، نسأل الله العفو والعافية والسلامة^(١).

فليتنبه المسلم خاصة أهل الجهاد والدعاة إلى الله ﷺ والعلماء والقيادات والناس المقتدى بهم.. عليهم أن يتنبهوا جداً جداً إلى هذه المعاني، ولا يصدوا الناس عن دين الله بسوء أعمالهم ومقابحها؛ فهذه هي الفتنة.

والفتن أسبابها كثيرة متعددة غير منحصرة، وعلى الإنسان أن يحذر منها ويتنبه لها، وأحياناً تكون بسيطة جداً؛ فالنبي ﷺ في قصة صفية، كانت صفية وكان بيتها في العوالي وبعيدة قليلاً، فخرج يشيعها بعد أن سهرت عنده؛ خرج يمشي معها حتى تقترب من البيت ويتركها، فأتى اثنان من الأنصار فرأوه مع امرأة في الليل! ماشي وأنت معك امرأة في الليل من يعرف أنها امرأتك أو غيرها؟ فناداهم النبي ﷺ قال: (إنها صفية) يعني اعلموا أن هذه صفية زوجتي، فطبعاً استعظما الأمر وقالوا: «والله يا رسول الله ما كنا نشك» أو كما قالوا؛ فقال: (إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما أو في أنفسكما شيئاً)^(٢) فبين لهم أن هذا الإجراء إجراء وقائي من النبي ﷺ شفقة منه ورحمة بهم، شفقة منه ﷺ وهو الذي وصفه ربه ﷻ بأنه بالمؤمنين رؤوف رحيم: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة] فحرصاً منه وشفقة على أمته وعلى هؤلاء الأنصار وهؤلاء الاثنان أن يبين لهم حتى لا يترك فرصة للشيطان أن يقذف في قلوبهم شيئاً؛ لأنهم الآن ربما لا يكون عندهم شيء، ولكن -مثلاً- يذهبوا ثم يأتي الشيطان يوسوس، وممكن تنسى وأنت عادي طبيعي جداً، ثم تحصل حادثة أخرى تقول: نعم، معنى هذه التي رأيتها المرة الفائتة إذن هي هكذا! ولهذا على الإنسان أن يتنبه.

ماذا قال لهم؟ وقفوا هذه صفية، انتبهتم؟ رُحوا.. فهو تنبيه فقط؛ حتى لا يقذف الشيطان في قلوبهم شيئاً لا في الحال ولا في المستقبل، وهذا من تمام شفقة النبي ﷺ بأمته ورحمته بهم وعطفه عليهم

(١) حدثنا بعض مشايخنا في أرض الجهاد قال: «من ساق عاصيا إلى الكفر كان له به كفل» أي وزر وإثم؛ انتزعها من هذه الآية.

(٢) صحيح البخاري (٢٠٣٨، ٣٢٨١)، صحيح مسلم (٢١٧٥) وقد قالوا: «سبحان الله يا رسول الله!».

وكمال حرصه عليهم ﷺ، وقد يكون موقفاً محرّجاً للأنصار، فهم مساكين جاؤوا طبعاً استعظموا هذا الأمر، وقد يكون تعليماً للأمة، تعليماً لنا نحن، كيف نتصرف في مثل هذه الحالات. أسباب الفتن كثيرة؛ فهذا رجل من الصحابة - وهو عبد الله بن سعد بن أبي السرح -، آمن ثم ارتد ثم آمن، وقصته مشهورة: لما جاء واستأمن له عثمان والنبي ﷺ في البداية لم يرد أن يقبل منه وسكت، وكان عثمان يلح، والنبي ﷺ ساكت، ثم قال النبي ﷺ بعد أن قبل منه في النهاية، قال للصحابة: (أنا سكتُ من أجل أن يقوم إليه واحد منكم فيضرب عنقه)، قالوا: يا رسول الله، هلا غمزت لنا؟ فقال: (ما كان لنبي أن تكون له خائنة الأعين)^(١).

فالمهم؛ أن عبد الله بن أبي السرح - روي عدم صحتها لكن لا بأس نذكرها؛ لأنها ممكن أن تقع سواء صحت هذه القصة بعينها أو لا، فمثلها يقع في الوجود، فيتأمل ويعتبر - روي أنه - ولعل هذا سبب «القشة التي قصمت ظهر البعير» وهذا مثال معناه الحاجة الأخيرة، البعير لما تضع عليه الحطب الكثير، فيتحمل، ويتحمل.. وفي النهاية ممكن تأخذ قشة وتحطها عليه ممكن يسقط هو؛ فيقولوا: القشة هذه قصمت ظهر البعير، ليس من قوة القشة هذه ولكن من الذي قبلها، فلعلها هي، مثل الذي أتى للبيت فيجد الطعام مالح شوي فيطلق المرأة، هو لم يطلقها يعني لأن الطعام مالح، بل من الذي قبلها، ممكن المشاكل المتراكمة، لكن السبب المباشر الأخير، أو مثلاً: يقولون الذي يكسر في حطب بالفأس يكسر يضرب، يضرب، يضرب، في النهاية هي أوشكت لو ضربها الضربة الأخيرة ستكسر، وهو لم يعلم، لا يعلم الغيب، فترك الفأس ومشى، فأتى غيره ضعيف أو طفل، فقالوا: انكسرت! الله أكبر، الدقة الأولى! ساعة يدق فيها، فالمقصود هذه القشة التي قصمت ظهر البعير هذا هو توضيح المثال -، على كل حال هذا الصحابي رجع إلى الإسلام وتثبت له الصحبة؛ لأنه مات على الإيمان وقد رأى النبي ﷺ مؤمناً.

المهم حصلت له فتنة فيما روي وقيل - وقد كان هو من كتّاب الوحي - فيقال في هذه الرواية أن النبي

(١) سنن أبي داود (٤٣٥٩) من حديث سعد بن وقاص ﷺ قال: «لَمَّا كَانَ يَوْمُ فَتْحِ مَكَّةَ، اخْتَبَأَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَعْدِ بْنِ أَبِي سَرْحٍ عِنْدَ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ، فَجَاءَ بِهِ حَتَّى أَوْقَفَهُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، بَايَعُ عَبْدُ اللَّهِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ ثَلَاثًا، كُلُّ ذَلِكَ يَأْتِي، فَبَايَعَهُ بَعْدَ ثَلَاثٍ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: (أَمَّا كَانَ فِيكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ يَقُومُ إِلَى هَذَا حَيْثُ رَأَيْتُ كَفَفْتُ يَدِي عَنْ بَيْعَتِهِ، فَبَيْعْتُهُ؟) فَقَالُوا: مَا نَدْرِي يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا فِي نَفْسِكَ، أَلَا أَوْمَأْتَ إِلَيْنَا بِعَيْنِكَ؟ قَالَ: (إِنَّهُ لَا يَتَّبِعِي لِنَبِيِّ أَنْ تَكُونَ لَهُ خَائِنَةٌ الْأَعْيُنِ)» و صححه الألباني.

﴿لَمَّا نَزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ﴾ فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ [المؤمنون: ١٤] فِيمَلِي عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ هَكَذَا ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ فَقَالَ هُوَ -عَبْدُ اللَّهِ بْنِ السَّرْحِ- لَمَّا تَعَجَّبَ مِنْ هَذَا السِّيَاقِ قَالَ مِنْ نَفْسِهِ: تَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ! فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: (اَكْتُبْهَا هَكَذَا نَزَلَتْ): ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ فَحَصَلَتْ لَهُ مِنْهَا فِتْنَةٌ؛ فَلَمَّا مَشَى وَكَفَرَ وَارْتَدَ، قَالَ: أَنَا الَّذِي أَمَلِي عَلَيْهِ الْقُرْآنُ، قَلْتُ لَهُ هَذِهِ الْآيَةُ فَقَالَ لِي: اكْتُبْهَا هَكَذَا! ^(١) فَكَانَتْ هَذِهِ فِتْنَةٌ عَظِيمَةٌ جَدًّا لَهُ.

لكن نحن نقول أنه بالتأكيد كانت توجد أشياء أخرى وليس هذه فقط؛ هذا في الغالب.

الفتنة تضر من؟ غالبًا الذين تقع لهم الفتن يكونون أصلًا عندهم خلل مسبق لكن خفي؛ فلا تكون الحادثة التي فتنته هي الوحيدة، لا يكون مثلًا رجل قوي الإيمان واليقين، وجاءت حاجة أسقطته! لا، بل تكون «قشة قصمت ظهر البعير»، الغالب أنه توجد عنده ظروف معينة، كأن يكون الكفار ألقوا له شبهات قبلها أو شيئًا من هذا القبيل؛ فلما مشى هناك قال: أنا الذي أمليت عليه، وأنا الذي قلت له، ما أقوله يكتبه وهكذا.. حاشا رسول الله ﷺ، بأبائنا هو وأمهاتنا ﷺ، لكن هي الفتن لما تقع للإنسان.

فريد أن نقول: الفتن تضر من؟ دلت الأدلة -والله أعلم- بحسب ما يظهر من الاستقراء من القرآن والسنة واستفادةً من قول النبي ﷺ في الحديث المشهور الذي في الصحيحين: (تعرض الفتن على القلوب كعرض الحصير عودًا عودًا، فأیما قلب أشربها نكتت فيه نقطة سوداء، وأيما قلب أنكرها نكتت فيه نقطة بيضاء) فالمقصود أن الفتن تعرض على القلوب كعرض الحصير، وهذا تمثيل بالتدرج؛ نقطة نقطة، كلها محركات؛ فالقلب الذي ينكر الفتنة يكون أبيض سالمًا، والقلب الذي يشرب هذه الفتنة ويقبلها تنكت فيه نقطة سوداء، كل مرة تأتي له الفتن فتتقط نقطة سوداء حتى يصبح القلب أسودًا، ولما يسود القلب يتكون عليه نوع من الران، ثم إن هذا الران وهذا الغين يتبعه الختم والطبع، والعياذ بالله، فيصبح القلب ماذا؟ وصفه النبي ﷺ في آخر الحديث بأنه (كالكوز مَجْحِيًا لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا إلا ما أشرب من هواه) ^(٢) فيعيش هذا الرجل ولا يقبل الهدى.

ومعنى (إلا ما أشرب من هواه) أن هذا الذي يعرفه أشرب من هواه، أي إلا الذي أشربه هو وتشربه

(١) هذا الخبر بهذا التفصيل ذكر في عدة تفاسير من غير إسناد، كما في: النكت والعيون للماوردي (٢/ ١٤٤)، وما جاء مسندًا فهو من

المراسيل بأسانيد ضعيفة، وقد قال ابن عاشور معقبًا على هذا القول في: التحرير والتنوير (٧/ ٣٧٥): «هذا لا ينشج له الصدر؛

لأن عبد الله بن أبي السرح ارتد بعد الهجرة ولحق بمكة، وهذه السورة مكية» فالقصة ضعيفة كما ذكر الشيخ عطية ﷺ.

(٢) صحيح مسلم (١٤٤).

من هوى نفسه فقط؛ هذا الذي يقبله هو الهوى فقط؛ فيصبح متبعًا لهواه اتباعًا خالصًا. وينبغي أن يُعلم أن قلوب العباد -والإيمان في القلب، والعقل واللب هو القلب كما قلنا- قلوب العباد تعرض عليهم الفتن؛ فمنهم الذي يسلم ومنهم الذي يتأثر بالفتنة ويمشي؛ سواء كانت هذه الفتنة عقلية علمية فكرية منهجية مقالية تتعلق بالتصورات والأحكام، أو كانت فتنة عملية: عمل، عراك بين الناس وفتن ومرج وهرج وحروب وهكذا؛ فلما تأتي الفتن ينقسم الناس، كيف ينقسمون وبناء على ماذا؟ تأمل في هذا وانظر فيه تجد أسبابًا معينة؛ يظهر -والله أعلم- من دلالات القرآن أن الفتنة في الغالب تضر الظالمين، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ﴾ [الصافات] في ماذا تكون الفتنة هنا؟ في شجرة الزقوم: ﴿أَذَلِكْ خَيْرٌ نُزْلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُومِ﴾ [١٦] ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ﴾ [١٦] ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ [١٦] ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ [١٦] ﴿فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ [١٦] ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ [١٧] ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرَجَهُمْ لِآلِ الْجَحِيمِ﴾ [١٨] ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَاؤُا بَاءَهُمْ ضَالِّينَ﴾ [١٩] ﴿فَهُمْ عَلَىٰ آثَرِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ [٢٠] [الصافات] يظهر من إشارات القرآن..

فيظهر من إشارة القرآن أن الفتنة تضر الظالمين ضررًا خاصًا، ومعنى ذلك أنه يجب علينا أن نحذر من الظلم؛ فأكبر شيء يجعل الفتنة تضرنا هو أن نكون في موضع الظالم، كما قلنا أن من أسباب الهداية: تحقيق الحق، والقيام بالقسط، والعدل والإنصاف، وأن لا نظلم، ونبتعد عن الظلم. الفتنة تضر الظالمين، والرجل إذا أتى الإنسان الظالم الذي لا يحق الحق ما يقسط ولا ينصف ولا يقوم بالقسط تضره الفتنة، لكن لو حقق الحق؟ في المثال عبد الله بن أبي السرح لو حقق الحق وأنصف، لكان تريث وثبت وقال: لا، لعلي أنا قلتها فاتفق بطريق الاتفاق والمصادفة، الحمد لله وافقت ما عند الله، وافقت ما نزل.. فأبي عيب في هذا؟ ما فيه عيب، حقق الحق وأنصف، قد يكون كذا لها وجه، محتملة كذا، ومحتملة كذا.

طيب، أنت لماذا رجحت هذا الاحتمال الذي رجحته؟ أين نسفت النبوة؟ هذا محمد ﷺ؛ نبوته، وكماله، وجلالة قدره، وعظمته، وهذا الصدق، وهذه الأمانة وهذا العقل، وهذه البلاغة وهذه الفصاحة وهذه الكمالات العظيمة المبهرة للألباب أين نسفتها كلها بشيء مثل هذا؟! فعليه أن يحقق الحق، لكن لو حقق الحق فلا تضره الفتنة، لكنه ظلم فتضره الفتنة ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ﴾ [١٦] والآية التي ذكرناها قبل قليل تكررت في موضعين: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاعْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الممتحنة]، وفي قصة موسى وهارون: ﴿فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس]

في آية أخرى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [يونس: ٨٨] هذه الآية بعدها، نرجع إلى الخلف في ترتيب المصحف؛ فأصعب شيء الرجوع إلى الخلف. يقولون: الحجاج كان يتحدى -والحجاج مشهور في التاريخ أنه كان عنده قوة في حفظ القرآن عجيبة، وعنده أمور أخرى عملها في القرآن مثل: التحزيب والشكل والنقط؛ كلها تنسب إليه، وكان معتنياً بالقرآن على كل حال، هو جبار وضال - فمرة كان يختبر في الناس كثيراً بهذا الأمر؛ أن يأتي أحدهم بالآية التي قبلها وليس التي بعدها.

وحتى عندنا قديماً حضرت أكثر من مرة المشايخ عندنا في الكتابات كانوا يعملون في هذا الأمر مسابقات؛ تأتي بالآية التي قبلها وليس التي بعدها، هذه يتميز فيها الحفاظ المتقنون. فالحجاج قال لرجل: ائت بالذي قبل آية الزمر: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَلْبُكَ عِندَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر: ٩]، فقال له: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [الزمر: ١].. قالوا: فلم يسأل أحداً بعده، وعوداً لموضوعنا؛ فالآية التي قبلها قوله ﷺ: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ [يونس: ٨٣]، وفي سورة الممتحنة آية شبيهة بها فيها: ﴿وَإِلَيْكَ أُنَبِّئُكَ وَالِإِكِّ الْمَصِيرُ﴾ [يونس: ٤] رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاعْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الممتحنة].

فالله ﷻ في الموضوعين علمنا ولقننا أن ندعوه ألا يجعلنا فتنة للذين كفروا، وألا يجعلنا فتنة للقوم الظالمين على كل حال، وآية يونس فيها إشارة إلى أن الفتنة تضر الظالمين، وآية الممتحنة فيها القوم الكافرين؛ فينتبه الإنسان لهذه المعاني؛ لأن الفتنة إذا جاءت تضر الإنسان إذا لم يكن محققاً للحق؛ لم يكن معتصماً بالله، أما الذي يعتصم بالله وبنور الله وبحبل الله ويلجأ إلى الله ﷻ ويحقق الحق وينصف ويقسط؛ فينجو - إن شاء الله - من الفتن، الفتن العامة التي تصيب الناس ولا مناص منها، وهي تحصل كثيراً سواء - مثلما قلنا - كانت فكرية أو عملية، وإلا فالأصل أن المطلوب من الإنسان أن يهرب من الفتن ويفر منها ويتعد عن الفتن - كما قلنا في البداية -؛ هذا ما يتعلق بالفتنة، وما أكثر الفتن التي تحصل في الواقع اليومي.

نكتفي بهذا القدر.. سبحانك اللهم وبحمدك نشهد ألا إله إلا أنت، نستغفرك ونتوب إليك..

(١) انظر: وفيات الأعيان (٢/ ٤٠) قال: «وكان الحجاج كثيراً ما يسأل القراء، فدخل عليه يوماً رجل فقال له: ما قبل قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَلْبُكَ عِندَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾. فقال: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ قال: فما سألت أحداً بعدها».



الدرس الرابع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقصود من هذه الدروس: تصحيح بعض المفاهيم والتركيز في فهم هذه الألفاظ وهذه الألقاب الشريفة والكلمات الكبيرة الشرعية؛ التركيز على فهم معانٍ معينة لمواجهة أعدائنا وفي معرفة ما يدور حولنا من أفكار ومناهج والحكم عليها.. وقد تحدثنا سابقاً عن معاني الدين ومعاني الابتلاء والفتنة والمحنة.

ومن المقدمات الضرورية التي أذكر بها أن الكلام الذي نقوله على درجات؛ فالكلام ليس له طبقة واحدة أو درجة واحدة، منه كلام نقول فيه: هذا حكم الله ﷻ؛ كلام مقطوع به في الشريعة أو دلّ عليه النص الواضح أو إجماع أو ما في حكمه من حيث قوة الدلالة، ومن كلامنا أشياء هي محل اجتهاد ومحل نظر؛ فنحن نختار فيها ونرجح ونناقش ونجادل ونحاول أن نوضح الذي نعتقد، وفي النهاية نقول: الله أعلم؛ فهي مسائل مختلفة، فانتبهوا لهذا، وأي شيء يحتاج إلى نقاش أو شيء دائماً نناقشه.

تكلمنا عن الدين وكنت أريد أن أتكلم عن علاقة الدين بالدنيا والآخرة، فإننا لما ذكرنا أن الدين ليس برنامجاً سياسياً ولا برنامجاً لحياة سعيدة كما يتصورها الناس: حياة رغدة، منعمة مترفة وراحة واطمئنان، وليس هو برنامجاً سياسياً مثلاً: يأتي حزب يأخذ الدين ويوظفه ثم يقولون: استغلال الدين لأغراض سياسية أو شيء! لا، الدين هو دين الله ﷻ، هو التكليف والأوامر والنواهي التي نعبد الله ﷻ بها، وعلى أساسها نعبد الله ونتدين، هذا هو أساس الدين.

لكن الدين في أساسه وفي داخله وجملته تنتظم سعادة الإنسان الدنيوية؛ كما تنتظم سعادة الإنسان الأخروية، والغرض الأساس والمقصود الأول هو سعادة الإنسان الأخروية: أن ينجح الإنسان بين يدي الله ﷻ، وأن يخرج من هذا الامتحان - امتحان الدنيا - ومن دار الممر، ودار الزوال، ودار الفناء؛ يخرج منها ناجحاً يقول: (هَأْوُمُ أَقْرَعُوا كِتَابِيَةَ ﴿١٠﴾ إِنْ ظَنَنْتُ أَنْي مُلِّقٍ حِسَابِيَةَ ﴿١١﴾) [الحاقة] أو يكون حتى أعلى من هؤلاء جدّاً الذين يمشون بغير حساب ولا عذاب، أو يكون من الشهداء، المهم أن يكون الإنسان ناجحاً، هذا هو المقصود الأساس؛ لأن الله ﷻ خلقنا وأوجدنا في هذه الدنيا؛ ليختبرنا

ويبتلينا، ابتلانا بالعبادة: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات] خلقنا لعبادته، وامتحنا بهذه العبادة، أنزل لنا الكتب وأرسل لنا الرسل؛ بين لنا كيف نعبد، عرفنا بنفسه ﷺ، ثم انقسم الناس إلى مؤمن وكافر، تقاتلوا وتناحروا وتشاجروا.. أفلح من أفلح، وخسر من خسر، والإنسان العاقل الذي آتاه الله هداية فآمن بالله واتبع رسله، وفاز بالمقصود الأساسي: أن يُنجح نفسه بين يدي الله.

ولهذا أهم الشعارات التي سنكتبها هنا - إن شاء الله -، أن يكون شعار الإنسان المؤمن دائماً هو «نفسى نفسى» يعني أنا أنجى نفسى بين يدي الله أولاً، وأن أكون رابحاً أولاً.

نحن ندعوا إلى الله ونجاهد في سبيل الله وهنا حرب ومعارك شرسة، وشهداء ودماء وأشلاء، ثم في النهاية.. لنفترض أننا أقمنا دولة الإسلام ثم دخلنا النار، ما الفائدة؟! هل استفدنا شيئاً؟!

(إن الله لينصر هذا الدين بالرجل الفاجر وبأقوام لا خلاق لهم)^(١) يعني لا نصيب لهم؛ فالخلاق هو النصيب، لا نصيب لهم فيما فعلوا وفيما تحقق وفيما أنجز، نسأل الله العفو والعافية والسلامة.

ولهذا هناك عبارات تتكرر على الساحة؛ يأتيك أخ يقول: أنا أخدم دين الله.. نقول له: اخدم رُوحك ونفسك أولاً؛ لا أن تخدم دين الله، دين الله غني عنا جميعاً، حتى العبارة هذه وإن كان لها معنى حسن تحمل عليه، ولكن نخشى أنها صارت تعبيراً عن مفهوم سيء؛ فلماذا لا بد من التنبه لها.

فالمقصود: أننا لم نخدم دين الله، نحن نخدم أرواحنا، نخدم أنفسنا، والمطلوب أن أخدم نفسي، وأنجىها بين يدي الله ﷻ، أنا أعبد الله ﷻ، أنا عبد الله، جندي من جنود الله، أعمل ما يرضي الله ﷻ، ما هي مصلحتي؟ على ماذا أبحث؟ أن أفوز، وأكون من الفائزين المفلحين الراضين الناجحين المرضيين عند الله ﷻ، هذا هو الأساس، ما خالفه وشذ عنه تحت رجلي ولا أنظر إليه، إنما هذا يدخل فيه أنني أعمل لإقامة دولة الإسلام، وأدعو الناس إلى دين الله، وأحرص على هداية الناس.

لماذا نحرص على هداية الناس؟

أولاً: أول شيء هو أنا، أنا نفسي، أمرُّ أنا مكلف به، عبادة الله ﷻ أوديتها، أوجبها الله علي بمقتضى أنه علمني شيئاً من العلم، علمني القرآن، وعلمني الفقه والعلم الشرعي والحكمة؛ فأنا أقضي بها بين الناس وأعلمها الناس وأدعو الناس إلى دين الله ﷻ، أعبدهم الله، وأدلهم على طريق الله وأرشدهم، وآمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر؛ فهذه أوامر إلهية أنا أطبقها.

(١) صحيح البخاري (٣٠٦٢، ٤٢٠٣، ٦٦٠٦)، صحيح مسلم (١١١).

أطبقتها لماذا؟ لا لأنجح أنا سياسياً وعندي برنامج سياسي، بل أطبقها لأنها عبادة لله ﷻ، أنا أقوم بها أولاً، لكن -كما قلنا- في ضمنها السعادة، فهذه عبادات أنا أؤديها مقصدي الأساسي الأول والمقصد الكلي والمقصد العظيم هو أني أنا أنجح، وأفوز برضوان الله ﷻ، وأؤدي ما علي فيرضى عني الله ﷻ وأنقلب إلى ربي مسروراً محبوراً، هذا هو مقصدي.

هذا المقصد لا شك أنه ينتظم -يعني يأخذه الإنسان في طريقه وهو ماشي- ينتظم سعادة الإنسان في هذه الحياة الدنيا، سعادة الاجتماع البشري، الغلبة على الكفار وأن نعيش أحراراً، هذه كلها معانٍ قصدها الشارع، وحث على تحصيلها وجعلها من الخير الذي يسعى له، لكن الإنسان يضيع المقصد الأساسي ويلهى بهذه التفاصيل؛ هذا مغبون، مخدوع، مثل هذا الذي ضربه لنا النبي ﷺ مثلاً: (إن الله لينصر هذا الدين بالرجل الفاجر، وبأقوام لا خلاق لهم) هذا الحديث والله يخلع القلب، تصور أنك تقيم دين الله ﷻ ودولة الإسلام وتهزم الكفار ثم تجد نفسك معهم في النار! ما الفائدة؟! المقصد الأساسي هو نحن «نفسى نفسى».. هذه الكلمة فلتكن شعاراً لنا.

فقلنا: تريد تخدم دين الله؟ تعرّف كيف تخدم دين الله، يوجد علم شرعي، ومعارف، ووسائل لمعرفة الخير والهدى؛ دعونا نعرف الخير فنفعله، هذا أول شيء، لما يأتي لك إنسان يقول أنا أريد أن أخدم دين الله وسأذهب للمكان الفلاني! لا، ليست هناك خدمة لدين الله، تريد تخدم دين الله حقاً وأنت صادق فيه فتعرف كيف يُخدم دين الله؟، ثم ما المقصود من خدمة الله؟ أولاً نفسك أنت، رضوان الله ﷻ عليك، هذا أول مقصود يجب أن تحصله.

فمثل هذه الأحاديث (إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر وبأقوام لا خلاق لهم) المفروض دائماً أن تكون نصب أعيننا لا ننساها ولا نغفل عنها؛ مقاصد الإنسان ومقاصد الشريعة، ولماذا الله ﷻ خلقنا؟ خلقنا لنعبده ولننجح ونفوز، نحن في امتحان في هذه الدنيا، كلنا في امتحان وفي اختبار. وهذا الامتحان والاختبار يحتوي على جزئيات من الأسئلة والتفاصيل، وفروع متكاثرة جداً.. فعلى الإنسان أن ينجح فيها؛ كما ينجح في معركة مع عدوه، أول شيء معركة الداخلية هو نفسه، وهو جهاد النفس، جهاد الهوى، جهاد الدنيا، جهاد الشيطان.. هذه الأشياء التي هي العوائق والعلائق والحجب عليه أن ينتصر عليها؛ يستعين بالله ﷻ؛ لأن الإنسان ضعيف لا يساوي شيئاً ولا يقدر أن يعمل أي شيء إلا أن يقدره الله، وإلا أن يوفقه الله، وإلا أن يعينه الله ﷻ، واستحضار معنى العبودية في كل تصرفاتنا وكل أفعالنا باستمرار، نحن عبيد الله ونحن جنود الله، نسأل الله أن يقبلنا في جنده وألا يطردنا.

المقصود: أن هذا الدين ينتظم هذه السعادات الدنيوية؛ أحياناً تمر علينا مسائل في عملنا السياسي وفي عملنا الجهادي والدعوي؛ مثلاً: أن الناس لا بد أن تخاطبهم أحياناً بشيء مما يحصلون به أو يشعرون أنهم يحصلون به ويكسبون به سعادتهم الدنيوية؛ لأن الناس نظرهم قاصر -عوام الناس، ومعظم الخلق، وجمهور الناس- يعني ليس كل الناس تتعلق بالآخرة فقط ولا تنظر إلى الدنيا ويستطيع أن يأكل ماء وتمراً فقط، الناس تحتاج رفاهية.

ولكن بالأساس وفي مراحل معينة يكون التركيز على الدين وعلى الآخرة والوعد بالجنة فقط؛ كما كان النبي ﷺ في أول مراحل الدعوة لما كان يعرض نفسه على قبائل العرب ويقول: (من يؤويني حتى أبلغ دعوة ربي)؛ فيسأله بعض الناس: فماذا لنا إن نحن أويناك ونصرناك؟ يقول: (لكم الجنة)^(١).

وأتى بنو عامر وقالوا: نشترط عليك أن تجعل لنا الأمر من بعدك، قال: (لا، الأمر لله يؤتية من يشاء)^(٢).

وفي مراحل معينة أنت أيها الداعية، وأنت أيها المجاهد، وأنت أيها القائد للناس.. ليس من المستحسن وليس من الجيد -بل قد يكون من السيئ جداً- أن تعد الناس بوعود دنيوية في مراحل معينة؛ فهذا يختلف بحسب المرحلة ومتطلباتها، لكن أحياناً يكون الناس -لا سيما إذا كان الناس بالجملة مسلمين، محكوم عليهم بالإسلام- ونحن نريد أن نحرضهم على أن يلتزموا بالدين فلا بأس أن ندخل في دعوتنا بيان محاسن الدين، هذه يتكلم عنها العلماء يقولون: «محاسن الشريعة، محاسن الإسلام، محاسن الدين الإسلامي»

من محاسنه أنه سعادة الإنسان فيه نفسه، وسعادة الإنسان في الحياة الأسرية إذا التزم بالإسلام الله ﷻ ينزل عليكم البركات: (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَّقُوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ) [الأعراف: ٩٦]، (فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿٢﴾ وَيُمِدُّكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴿٣﴾) [نوح] هذا في الدنيا؛ المقصود هنا في الدنيا، والله أعلم.

فلا بأس أن يوعد الناس أحياناً، ويكون هذا من تكميل البيان ومن تكميل المقاصد، لكن المقصد

(١) مسند أحمد (١٤٤٥٦) وقال الأرئؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.

(٢) تاريخ الطبري (٢/ ٣٥٠)، البداية والنهاية (٤/ ٣٤٧).

الأساسي دائماً الذي لا بد أن يكون حاضرًا هو توحيد الله ﷻ؛ أننا نحن عبيد الله ﷻ، ندعوكم إلى عبادة الله حتى تفوزوا وتفلحوا وتكونوا من الناجحين الرابحين المفلحين الفائزين الذين يرضى الله ﷻ عنهم ويدخلهم جنات النعيم، هذا هو الأساس، وأن هذه الدار هي دار امتحان وابتلاء وفتنة واختبار؛ أنتم في دار ممر تمرّون فيها وتختبرون، ثم ينتهي الامتحان في نقطة معينة وهي نقطة الموت فيفترق الناس: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى].

فيجب أن تحرص بكل قوة على هذا؛ فهو رأس مالك ووجودك، وهذا كل شيء بالنسبة لك أنت؛ يجب أن تحرص أن تكون من الفائزين، هذا المعنى دائماً يجب أن يكون حاضرًا في خطابنا وفي دعوتنا.

لكن أحياناً من بعض التكميلات -وجاءت الشريعة بهذا؛ مثل هذه الآيات التي قلناها وغيرها- لا بد أحياناً يقول له الناس: الدين الدين الدين، والدنيا.. فلازم الدين، ودنيا تدخلها للناس، وهذا لعله من لطف الله ﷻ؛ لأن البشر لا تتحملة، والإنسان بفطرته وغريزته مولعٌ بالعاجل، قال الله ﷻ: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴿١٠﴾ وَتَذُرُونَ الْآخِرَةَ ﴿١١﴾﴾ [القيامة]؛ فالإنسان مولعٌ بالعاجلة أي أنه يريد الحاجة القريبة، يقولون: «عصفور في اليد ولا عشرة في الشجرة».

وبعض الناس يطبقها، هكذا بعض الزنادقة -سمعت بعض الزنادقة طبقتها على الدنيا والآخرة- يقول: عصفور في اليد يعني هذه الدنيا؛ أنا متمكن منها الآن، ولا عشرة في الشجرة يقصد الآخرة، بعض الزنادقة هكذا طبقتها، فهذا من الفتنة له.

وهذا من الخطأ الذي يقع في التشبيهات؛ الخطأ في التشبيهات من أكثر الأخطاء التي تقع في الجدل، يأتي لك بمثال يحاول أن يقنعك به في حين أن المثل هذا غير منطبق على الشيء الذي يريد أن يطبقه عليه، يعني الدلالة لا تطابق المدلول، الدعوة أعم وأكبر من المدعى؛ فيقع في هذا الخطأ كثير جداً من الناس، فتجد حتى في أهل العلم، وفي الدعاة، وفي الناس، وفي الخطباء، وفي القصاص.. في الناس التي تقنع الآخرين وتستعمل أدلة خطابية وكلام يأتيون بتشبيهات معينة، مثلاً: تتناظر مع واحد في طرائق التغيير الآن أو الجهاد والدعوة والسلفية فيأتي لك بتشبيهات؛ فالتشبيهات هذه يقع فيها الخطأ كثيراً، يقع فيها الخطأ في وجه الشبه مثلاً، العلماء حتى في علم البلاغة وعلم الجدل نبهوا على هذا؛ ويمكن أن نمر عليه -إن شاء الله- إن أسعفنا الوقت.

لكن المقصود المهم أن الدين أساسه هو هذا الذي شرحناه: عبادة الله ﷻ، والاختبار، وأنه يجب أن نكون ناجحين في الاختبار، ونذهب هناك نحن ناجحون رابحون مفلحون، لكن هو يتنظم -عبارة

ينتظم هذه عبارة يستعملها العلماء- ينتظم مجموعة من الخيرات الدنيوية، والمنافع الدنيوية، منها:

- أن نعيش سعداء.

- وأن نغلب الأعداء.

- وأن نعيش أحرارًا ونكون في عزة وكرامة.

- ونبني دولتنا.

هذه كلها معانٍ صحيحة ومرادة لله، لكن نقول: هي مرادة وليست هي الأساس؛ ليست بالقصد الأول كما يقولون، إنما هذا القصد الثاني يعني مرتبة ثانوية.

إذن؛ الدنيا والآخرة صارت في نظرنا شيء واحد، ربعي بن عامر رضي الله عنه قال: الله ابتعثنا لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ضيق الدنيا - التي أنتم يا كفار يا جهلة حاصرين أنفسكم فيها، واستفرغتم هذه الدنيا واستغرقتكم وتفرغتم لها ولا تعرفون غيرها (بَلِ أَدْرَاكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلِ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلِ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ [النمل]، (يَعْلَمُونَ ظَهْرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿٧﴾ [الروم] الدنيا هي التي أخذتكم، وهي ضيقة في النهاية؛ لا تساوي شيئاً - نحن ابتعثنا الله كي نخرجكم - إذا آمنتم واستجبتم لنا واتبعتمونا - من ضيق الدنيا هذه إلى سعة الدنيا والآخرة^(١).

فالمؤمن ينظر إلى الدنيا والآخرة كلها شيئاً واحداً؛ هكذا ابتداءً، هذه دار ممر وأنا أمشي للآخرة، علي أن أنجح هنا، وهذه مزرعتي للآخرة؛ فالذي أزرعه هنا أحصده هناك.

ولهذا سيدنا إبراهيم قال لمحمد رضي الله عنه في الإسراء: (يا محمد أقرئ أمتك السلام وأخبرهم أن الجنة قيعان وأن غراسها سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر)^(٢) فالمقصود ذكر الله رضي الله عنه وخاصة هذه الأذكار، هذه غراس الجنة، والمقصود بهذا الترغيب وحث على ذكر الله رضي الله عنه ولا سيما بهذه الأذكار الشريفة والألفاظ التي شرعها الله رضي الله عنه واختارها لنا: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر.

(١) تاريخ ابن كثير (٩ / ٦٢١، ٦٢٢) وقال: «رواها سيف عن شيوخه» وسيف هو ابن عمر التميمي صاحب كتاب «الردة والفتوح» وهو متروك الحديث؛ اتهمه جماعة بالوضع، لكن قد يُستأنس بمثل هذا الحديث خاصة مع وجود شواهد على حوادث مثله، مع

الأخذ بالاعتبار أن العلماء يتسامحون في نقل الروايات التاريخية والاستفادة منها، وهو الراجح؛ في تفصيل ليس هذا محله.

(٢) سنن الترمذي (٣٤٦٢) وحسنه الألباني.

(لا حول ولا قوة إلا بالله كرز من كنوز الجنة)^(١) كما جاء في الحديث، وهكذا؛ فأنت تغرس هنا.. وتحصد هناك، وتجنني هناك في الجنة.

وهكذا (من بنى لله مسجدًا بنى الله له قصرًا في الجنة)^(٢) ومن فعل كذا أعطاه الله في الجنة، هذه الأعمال الصالحة تعملها أنت هنا وتجننيها هناك؛ فصار في نظر المؤمن وفي تصوره أن الدنيا والآخرة شيء واحد، متصلتان، وصار نظره متسعًا، وأفقُه واسعًا جدًا جدًا.

أما الكافر فهو في ضيق الدنيا؛ لأنه لا ينظر إلى الآخرة، حتى وإن قال الكفار مثل اليهود والنصارى؛ أنهم يؤمنون بالآخرة في آخرة وفي جنة، و«ديانا» دخلت الجنة و«ماما تريزا» هذه في الجنة، هؤلاء أكابر أهل الجنة عندهم! لكن ما عندهم علم بهذا أو حتى ظن غالب، مجرد أوهام مقتبسة من آثار النبوات السابقة التي هم منتسبون إليها، نبوات الأنبياء التي ينتسبون إليها، موسى والتوراة، وعيسى والإنجيل، وأنبياء بني إسرائيل عمومًا داوود وسليمان وغيرهم من الأنبياء والرسول -عليهم الصلاة والسلام-؛ لا شك أن جميع الأنبياء جاؤوا بإثبات هذه الأصول كلها، الحشر والنشور والجنة والنار، جاؤوا به واتفقوا عليه جميعًا ودعوة الناس إلى اتباع السبيل الموصل إلى الجنة والنجاة من النار.

فهذه من آثار هذه النبوات التي لا تزال عندهم وما زالت في كتبهم مكتوبة وهم يؤمنون بها، يظنون أنه توجد جنة، لكن هل يوجد يقين بذلك؟ هل إيمانهم حقيقي يجعلهم يعملون لهذه الجنة وللنجاة من النار؟ ويتحرقون ويخافون ويبيكون؟ لا يوجد أصلًا بل هذا منعدم عندهم؛ لأنهم في الحقيقة كافرون بهذه الرسالات، وليسوا معظمين لله ﷻ ولا لأمره ونهيه، ولا متبعين منقادين عابدين خاضعين خاشعين، ليسوا كذلك، وليس هناك يقين ولا حتى غلبة الظن، إنما باقي آثار عندهم: نؤمن بالله، ونحن نكون في الجنة، وبوش يقول لك: أنا في الجنة، وشارون يقول لك: أنا في الجنة، كلهم يقولون هكذا!!!

هذا الذي عبر الله ﷻ عنها في القرآن بالأمانى: (تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ) [البقرة: ١١١] ألم يقولوا: (وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِيًّا تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) [البقرة: ١٢٩] أحضروا، أروني، هل عندهم براهين أو عندهم قناعة أو يقين يعملون له؟ لا، هذه بقايا من النبوات السابقة أنهم يقولوا نحن مؤمنون بها، يقولوا نؤمن بالله، الأمريكان كاتبين على الدولار نؤمن بالله، ونثق في الله،

(١) صحيح البخاري (٤٢٠٥)، صحيح مسلم (٢٧٠٤).

(٢) هو بهذا اللفظ في: جزء ما انتقى فيه ابن مردويه على الطبراني (١٥٨) وأصل الحديث في الصحيحين وغيرهما.